بيئة الأندلس:

تقع شبه الجزيرة الايبيرية موقعا فريداً بين القارتين الأوربية و الأفريقية و تمتد بين الجبال و البحار نزلها العرب نزول الفاتحين فكانت المرحلة الأولى مرحلة الغزو و الاستيلاء ثم كان العهد الأموي فاطمأنّت البلاد الى جيش يحمي برها وبحرها فراح الأمراء و الخلفاء ينشئون في قرطبة مدنيّة تشبه مدنيّة دمشق و تنافس كبرياء بغداد و أما إشبيلية فقد أصبحت ابرز موطن للإشعاع الفكري و العمل السياسي و كذلك غرناطة التي ازدهرت في عهد ملوك الطوائف، نجد في الأندلس الى جانب القصور و الأبنية الفخمة و الى جانب الزخرفة البالغة، هناك عدد كبير من البرك و الرياض الأنيقة و الأودية المتحولة الى متنزهات ساحرة و هناك وادي الطلح و وادي العروس قرب إشبيلية، و السدود والنواعير و الفوارات المتألقة بألف ضوء و الف مصباح و القناطر التي تتزاحم المياه فيها فأصبحت الأندلس ميداناً واسعاً للعيش الرخي، و كذلك إنتقلت الموسيقى مع العرب الى الأندلس و إنَّ (زرياب) خير من مثل ذلك الانتقال و أنشأ مدرسة أصبحت معهداً كبيراً للموسيقى الأندلسية ثم تبعتها مدارس أخرى في إشبيلية و طليطلة و غرناطة و يتلوه أبو القاسم عباس بن فرناس ت (٨٨٨) هـ و له الفضل الأكبر في إدخال الموسيقى الشرقية الى إسبانيا، هذه كلها لها دور في انتشار الثقافة في الأندلس و عزّزها الحكام و عملوا على انشاء المعاهد العلمية و ساعدوا على نقل ما صُنّف في الشرق العباسي و نشرهُ في الغرب.

فنشأ الأدب في الأندلس ولا سيما الشعر فأنه كان مع الموسيقى من أشد وسائل التنفس الحياتي و الحضاري فكانت المرحلة الأولى للأدب العربي في الأندلس هي مرحلة انتقال الأدب المشرقي الى المغرب من غير تبديل أو تعديل فالأغراض و الأساليب كما هي و ذلك ان الأدباء الأولين هم ممن ولدوا و نشأوا في المشرق ثم انتقلوا الى الأندلس مع الفاتحين أو بعده بقليل، و كذلك الحكام الأولين كانوا شديدي التطلع الى الشرق لمنافسة بني العباس في بغداد فكانوا يشجعون على تقليد المشارقة، بالإضافة الى أن الثقافة الأدبية في الأندلس كانت استيحاءً لأدب المشرق, و كانوا الحكام و الخلفاء يعملون على استخدام اسباب العلم و الأدب من بغداد و الحجاز كأبي علي القالي و صاعد اللغوي، و كان للقيان و المغنيات فضل كبير في نشر الأدب المشرقي فأبتاع أمراء الأندلس و حكامها عدداً كبيراً منهنَّ مثل العجفاء و فَضل و علِم و قمر و زرياب و إبنتيه عُلية و حمدونة و جاريتيه غزلان و هُنيدة و غُلامهُ متعه الذين حملوا الى الأندلس أروع الألحان و أجمل الشعر.

لكن هذا التأثير المشرقي أخذ يتضاءل شيئاً فشيئاً منذ القرن الحادي عشر و ذلك لنبوغ عدد كبير من أبناء الأندلس في الشعر و الموسيقى و إن أهم ما اهتم به الشعراء الطبيعة و المرأة و الخمرة و توقف بعضهم عند الطبيعة توقف العاشق أمام المعشوق و إتخذها بعضهم الآخر للهوهم يتناغم و أحوالهم النفسية فكان الشاعر الأندلسي يصف الزخارف و القصور و الصور و الألوان، و شاع التشخيص في الشعر الأندلسي حتى تظن ان في الطبيعة مجتمعاً الى جانب المجتمع البشري، فكان الشعر في الأندلس لغة الحياة.

يقول أبن حصن في النيلوفر :

كُلَّما أقبلَ الظلامُ عليهِ غمَّضَتْ أنجمُ السّمَا عَينيْهِ [1]

فإذا عادَ للصباح ضياءٌ عادَ روحُ الحياة مِنهُ إليهِ

---

١ - تاريخ الأدب العربي : حنّا الفاخوري. ص٩٤٣

كذلك نلمس في الشعر الأندلسي انه فيه التصاق المرأة بالطبيعة، فنجد المرأة ذات صلة وثيقة بكل مظهر من مظاهر الجمال في الجنائن و جداول الماء، و قلما نجد أن يذكر الشاعر حجراً كريماً أو زهرة جميلة ولا يشبهها بثغرٍ خد أو عينٍ و ان الألوان الأحمر و الأصفر منها تشير الى حالات العاشق و المعشوق فالأصفر يشير الى المحب الولهان الذي ذاب نحولاً و ارقاً وعبَّر لونهُ الشاحب عن قلقهِ الدائم، و الأحمر يرمز الى الفتاة التي تلذ بتعذيب الحبيب كما يشير جعفر بن محمد المصحفي يصف سفرجلة :

ومصفرةٍ تختالُ في ثوبِ نرجسٍ وتعبقُ عن مسكٍ ذكيّ التنفسِ[1]
لها ريحُ محبوبٍ وقوة قلبهِ ولونُ محبّ حلّة السُّقُمِ مُكتَسي
فصفرتها من صفرتي مستعارةٌ وانفاسُها في الطيبِ انفاسُ مؤنسٍ

و كانت الموسيقى عنصر ضروري من عناصر الحياة الأندلسية فكان شعرهم لا يُفهم بمعزلٍ عن اللحن و تعاطى بعضهم فن الموسيقى فألفوا فيه كما فعل أبن باحة و كان أبو عبدالله بس الحداد يرى في الشعر غير النغم القائم على المدّات و السكنات فكان يرى فيه موسيقى حقيقية فصّل في عناصرها في كتب شهيرة. فكانت القصيدة قطعة موسيقية تعمل على اثارة العاطفة و الشعور.

---

١ - الجامع في تاريخ الأدب العربي. حنّا الفاخوري. ص٩٤٥

بواعث شعر الطبيعة في الأندلس :

تنعم البيئة الأندلسية بجمال و روعة آسرة و تصطبغ بظلال و ارفة و الوان ساحرة ما تبعث الإنبهار و الدهشة في النفوس و الشاعر هو ابن بيئتهِ وهو بلا شك يتفاعل و يتعايش مع الطبيعة فهو يتأثر فيها و ينفعل بها و هناك علاقة تأثير و تأثر فالطبيعة الأندلسية ساهمت في جعل البيئة الأندلسية فضاءاً للإبداع فيعمد الشاعر الأندلسي الى معانقة الطبيعة في شعرهِ فيراهن على تجسيدها و تشخيصها في اشعارهِ فكان الوصف أي وصف الطبيعة هو ابهى مظاهر الشعر الأندلسي في خصب عقول الشعراء و رفاهية حسهم ورقة تصويرهم و سعة خيالهم فكان الشاعر الكبير «ابن خفاجة» وهو يُعد مدرسة خاصة في وصف الطبيعة قد وصف الأندلس فجعل منها جنة الله في أرضهِ فيقول : [1]

يَأَهلَ أَندَلُسٍ لِلَّهِ دَرُّكُمُ ماءٌ وَظِلٌّ وَأَنهارٌ وَأَشجارُ

ما جَنَّةُ الخُلدِ إِلّا في دِيارِكُمُ وَلَو تَخَيَّرتُ هَذا كُنتُ أَختارُ

فكانت الأجواء في الأندلس خلّابة والطبيعة تفرض نفسها على الشاعر فالنفوس اذا طابت غنّت وتغزلت، ومن جانب آخر أرادوا التميز عن المشرق فكان لدخول بعض أعلام المشرق الى الأندلس هو دافع الى نهضة أدبية واسعة في مختلف المحالات وذلك لأقبال الأندلسيين على العلوم من جهة، والتشجيع الذي أبداه حكام الأندلس للعلوم والفنون من جهة أخرى وهو ما أدى الى نهضة ثقافية في الأندلس، فكان الشغر العمودي التقليدي هو في مقدمة أنواع الشعر التي كان الأندلسيين فيها نتاج واسع، فكان تقليد أدباء الأندلس لأدباء المشرق في الأغراض و المعاني و بناء القصيدة و ثقفيتها و طرق التخيل، ثم اضافوا إليها بعد نضج شخصيتهم الأندلسية ما جعلهم يوسعون و يطورون هذه الأغراض فظهرت الموشحات و هو من أنواع الشعر و هو فن اندلسي أصيل برع فيه أهل الأندلس و اجادوه و عنهم أخذَ المشارقة و قلدوهم [2].

و كذلك من جانب آخر لم يكن جمال الطبيعة في الأندلس هو وحده الذي ساعد على إزدهار شعر الطبيعة، بل إنَّ حياة المجتمع الأندلسي أثرة ايضاً في هذا الشعر و كانت سبباً في ازدهارهِ لكون الشعر عندهم يصف طبيعة الأندلس سواء الطبيعة الطبيعية أو الصناعية فهم يصورونها كما أبدعها الله في الحقول و الرياض و الأنهار و الجبال و السماء و القصور و المساجد و البرك و الاحواض و غيرها.

---

١ - ديوان ابن خفاجة : ص٧٢.

٢ - ينظر : دراسات في الأدب الأندلسي : العربي سالم الشريف.ص٢٩

الطبيعة الصامتة :

يقصد بها مظاهر الطبيعة المتجسدة في سهولها و انهارها و سمائها و ما تحويه من أبنية و قصور و أزهار فشكلت الزهور ملمحاً واضحاً في الشعر الأندلسي فمن أجمل ما قيل في الورد من رقة وصف ورفة ذوق و افتنان قول أبن غالب البلنسي الرصافي [1] :

يا وَردَةً جادَت بِها يَدُ مُتحِفي فَهَمى لَها دَمعي وَهاجَ تَأَسُّفي

حَمراءُ عاطِرَةُ النَسيمِ كَأَنَّها مِن خَدِّ مُقتَبِلِ الشَبيبَةِ مُترَفِ

الطبيعة المتحركة :

و يقصد بها ما اشتملت عليه من أصناف الحيوان فالحيوانات كانت تشكل قيمه كبرى ترفد الصورة بكثير من الصفات و قد أبرز الشاعر الأندلسي وصف الحيوانات مع دقة التعبير و صدق العاطفة، فقد وصف الخيل و الأبل و الطيور و الأسود و الذئاب و كانت الخيل من ابرز مظاهر الطبيعة الحية المتجسدة في الشعر العربي و أكثر شعراء الأندلس من وصفها و يأتي أبن زمرك، إبن خفاجة، أبن حمديس في مقدمة الشعراء الذين افتتنوا بها و وقفوا على اصنافها و أنواعها والوانها فيصف ابن خفاجة فيقول [2] :

وَمُطَهَّمٍ شَرِقِ الأَديمِ كَأَنَّما أَلِفَت مَعاطِفُهُ النَجيعَ خِضابا

طَرِبٌ إِذا غَنّى الحُسامُ مُمَزِّقٌ ثَوبَ العَجاجَةِ جيئَةً وَذَهابا

فهو يصف فرسه الأشقر وسط المعركة وشبّهه بما يناسب المقام فهو مطهم، شرق الأديم كأنه مخضب بالدم وهو يخوض المعركة مخترق عجاجها جيئة وذهاب وهو دليلاً على شجاعتهِ وقوتهِ.

---

١ - الأدب الأندلسي. موضوعاته و فنونه : د.مصطفى الشكعة.ص٢٧٧

٢ - الطبيعة في شعر ابن خفاجة .ص٢٣٧

من هنا نرى إن الشاعر الأندلسي قد افتنَّ بالطبيعة الأندلسية فجاءة الطبيعة في اشعارهم من خلال غرض الغزل و الوصف و حتى الرثاء، و نلمس في الشعر الأندلسي التصاق المرأة بالطبيعة و هي ذات صلة وثيقة بمظاهر الجمال فيها و كان الشاعر ابن زيدون من اشهر شعراء الأندلس كان قد ربط الطبيعة بالحب فأسقط مشاعره على مظاهر الطبيعة و أشركها في آلامهِ و احزانهِ و أستحق عند احد الباحثين المعاصرين لقب (شاعر الحب و الطبيعة) فيقول في حبهِ لولادة بنت المستكفي [١]:

أضْحَى التّنائي بَديلاً عنْ تَدانِينَا وَنَابَ عَنْ طيبِ لُقْيانَا تجافينَا

فكانت المرأة صورة من محاسن الطبيعة فكانت الحبيبة روضاً و جنةً و شمساً فقد قال المقري عن شعراء الأندلس : ((إنَّهم إذا تغزلوا صاغوا من الوردِ خدوداً و مِن النرجسِ عيوناً و من الآسلِ أصداغاً و من قصب السكر قدوداً ...)) [٢]

وجمال الطبيعة لم يكن وحده الذي ساعد على إزدهار شعر الطبيعة في الأندلس بل إنَّ الحياة اللاهية و الترف التي عاشها الشعراء كانت سبباً لهذا الأزدهار فقد أستسلم للهوهِ و حبهِ و خمرهِ و عكف يصور هذا اللهو فيقول ابن حمديس وهو يصف الخمر في ظلال الطبيعة [٣] :

نحنُ في جَنّةٍ نُباكِرُ منها ساحِلَيْ جَدْوَلٍ كسَيفٍ مُجَرّد

ومُدامٍ تطيرُ في الصحنِ سُكراً فتُحَلّ العقُودُ منها وتعقد

---

١ الجامع في تأريخ الأدب العربي : ص٩٧٠

٢ في الأدب الأندلسي : ص١٣٢

٣ في الأدب الأندلسي : ص١٣٥

فالشاعر الأندلسي لم يترك شيئاً إلا و وصفهُ وصفاً يجمع بين البراعة التصويرية و التوفيق الشامل في الوصف فقد وصف إبن حمديس تماثيل الأسود و هي تقذف المياه من افواهها و هي من مظاهر بذخ الطبيعة حيث أدخل الأندلسيون مياه الأنهارالى قصورهم الباذخة لترفد البرك الفخمة في الباحات من خلال هذه التماثيل فيقول [1]:

وضراغمٌ سَكَنَتْ عرينَ رئاسةٍ تركتْ خريرَ الماء فيه زئيرا
فكأنّما غَشّى النّضارُ جُسومَهَا وأذابَ في أفواهِها البلّورا

فهنا يصف البحيرة و ما فيها من تماثيل و مناظر متباينة و هي صور جديدة.

و من جانب آخر كان الحنين الى المشرق يمثل جنباً كبيراً من أماني شعراء الأندلس و أحلامهم فعبدالرحمن الداخل لا تُثنيهِ العزة و الرفاهية عن الحنين الى المشرق فيقول [2] :

تبدَّتْ لنا وسْطَ الرُّصافة نخلةٌ تناءتْ بأرضِ الغرب عن بلد النخل

فقلتُ شبيهي في التغرُّب والنوى وطولِ التَّنائي عن بَنِيَّ وعن أهلي

فهنا الأمير (عبدالرحمن الداخل) كان أميراً في بلادهِ إنتقلَ الى الأندلس فيصف نفسهُ بإنه النخلة وهو يوحي للمتلقي بأنه يُحاكي نخلة (شاخصة أمامهُ) في إشارةٍ منهُ الى حنينهِ الى أهلهِ فالنخلة هي أعلى شجرة في بلد المشرق و هي رمز العز و الشموخ ،

---

١ - في الأدب الأندلسي : ص٣١١

٢ - رفي الأدب الأندلسي : ص٢٤٨

فكان من انعكاسات البيئة على الشعر في الأندلس هو التشخيص و التصوير و التجسيد أي تصوير الطبيعة على نحو إنساني تملؤهُ الحركة و النشاط كما في شعر إبن زيدون و إبن خفاجة و غيرهما وكما فعل لسان الدين بن الخطيب في موشحتهِ التي عراض بها موشحة ابن سهل و مطلعها [1]

جادَكَ الغيْثُ إذا الغيْثُ هَمى يا زَمانَ الوصْلِ بالأندَلُسِ
لمْ يكُنْ وصْلُكَ إلاّ حُلُما في الكَرَى أو خِلسَةَ المُخْتَلِسِ

في هذهِ الموشحة يُجلّل الحيا الروض فتبسم ثغور الزهور، و يتنامى الماء و الحصى فيغارُ الوردُ و يحمرُ فقد قالها في الغزل وذكر الطبيعة و مدح به سلطانهِ (الغني بالله) .

الخصائص التي تميز بها شعر الطبيعة في الأندلس :

١- هو شعر يمثل تعلق شعراء ببيئتهم و تفضيلها على غيرها من البيئات كما عند ابن خفاجة و ابن زيدون و أبن حمديس و غيرهم.
٢- هو شعر يصف طبيعة الأندلس الطبيعية و الصناعية.
٣- هو شعر يصف الأقاليم الطبيعية المختلفة لـبلاد الأندلس فكان ابن زيدون يتغنى بقرطبة و ابن سفر المريني يصف اشبيلية و هكذا.
٤- الطبيعة عندهم تبعث جو الطرب ووصفها يمثل الجوانب الضاحكة و الندية منها.
٥- وصف الطبيعة عندهم مرتبط بالغزل و الخمر فهم يمنحون غزلهم لوناً بهيجاً من الجمال الذي تقدمه الطبيعة.
٦- المرأة صورة من محاسن الطبيعة، و الطبيعة تجد في المرأة ظلها و جمالها.
٧- شعر الطبيعة لا يظهر كغرض مستقل الا نادراً في بعض المقطوعات و القصائد، فقد امتزج في أكثر أغراض الشعر كالغزل و المدح و الفخر.
٨- شعرهم يعني بتشخيص الطبيعة و تصويرها و تجسيدها على نحو انساني تملؤهُ الحركة و النشاط .

---

١ - في الأدب الأندلسي : ص١٣٣.